سلسلة فقه الحرب (12)

# الحرب السِبرانية لن تقع

ديفيد بِتز




ترجمة: مويلك الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

# الحرب السِبرانية لم تقع

**ديفيد بِتز**

[Military Strategy Magazine - Summer 2011]

**النازعات**

**ربيع الثانِي ١٤٤٧**

**ديڤيد بِتز** (David J. Betz) أستاذ مادة الحرب في العالم الحديث في قسم دراسات الحرب في كلية «الملك» في لندن، وزميلٌ رفيع في برنامج الأمن القومي التابع لمعهد «أبحاث السياسة الخارجية». معظم بحوثه عن التمرد ومكافحته، وحرب المعلومات، والحرب السِبرانية. يتولّى الإشراف على جماعة أبحاث التمرّد في الكلية، ويقوم بإسداء المشورة للجيش البريطاني في شؤون الاستقرار ومناهج مكافحة التمرد. وهو كذلك مدير مشروع ممتد لعامين بتمويل من وزارة الدفاع الأمريكية تحت اسم «الاستراتيجية والمجتمع الشبكي»، وله مدوّنةٌ بعنوان «ملوك الحرب».

لفظ «الفضاء السِبراني» صاغه الكاتب الروائي **وليم غيبسون** ( William Gibson) في قصة قصيرة عام ١٩٨٢م عنوانها «احتراق الكروم – Burning Chrome». وقد قال عن صنيع يده ذاك: «بدت لي عبارةً رنانة نافذة الأثر، موحيةً لا معنى لها في ذاتها. كانت تستدعي صورًا، دون أن تحمل دلالة حقيقية، حتى عندي»(1). فلا خلاف اليوم في أنّ لهذا اللفظ رنينًا طاغيًا؛ فإنّ من أعجب ما في زمننا، على شدّة ما نزل به من ضيق في النفقات، أنّ إلحاق بادئة «السِبرانية» بهذا الشأن أو ذاك من السياسات والتهديدات، لهو مفتاحٌ نادرٌ لفتح صناديق المال العام لا يضاهيه غيره؛ ففي مراجعة الدفاع الأخيرة في بريطانيا، كان أمن الفضاء السِبراني من بين القلائل الذين زِيدت لهم المخصصات (وكانت الاستخبارات من جملة هؤلاء، ولا عجب)، أما ما سواهما من أبواب الدفاع، فقد تدلّت سهام الإنفاق فيها إلى أسفل.

وخيرُ شاهد على هذا التناقض بين شعور بالأمن الحسي الملموس، يقابله شعور بعدم الأمن من جهة غير مألوفة، ما جاء في عنوان الاستراتيجية الأمنية الجديدة لبريطانيا وصدارتها، وعنوانها: «بريطانيا قوية في عصر من الشك»: «إنّ بريطانيا اليوم أشد أمنًا وأشد عُرضة للخطر من معظم عصورها الخالية؛ فهي

(1) William Gibson, interviewed in *No Maps for These Territories*, dir. Mark Neale, 89 min (Mark Neale Productions, 2000).

أشدّ أمنًا من جهة أننا لا نواجه في الحاضر تهديدًا تقليديًّا مباشِرًا لأرضنا من دولة معادية، كما هو شأننا في كثير من سالف أيامنا. ولكنها كذلك أشد عُرضةً للخطر، لأننا من أكثر المجتمعات انفتاحًا في عالم صار أوثق تشابكًا من ذي قبل»[١].

وليست بريطانيا ببِدْعٍ في هذا، فمثل هذا مطروق في الكتابات الاستراتيجية الأمريكية كذلك، كما يظهر في «دورية الدفاع الرباعية – Quadrennial Defense Review»، ولا ريب أنّ أكثر دول العالم الكبرى تشاركها هذا الشعور[٢].

وأما لفظ «الحرب السِبرانية» –أو «الحرب السيبرية» إن شئتَ، فهما سواء– فهو لفظٌ مستملَح، لا ريب، ولكن ما دلالته الحقة عند الاستراتيجيين –الذين يُعنون بموازنة الغايات والوسائل والسبل– في شأن الحرب اليوم؟ ليس له كبير شأن، وليس لأنه لفظًا مستحدثًا خاليًا من المعنى فحسب، بل هو في ميزان الاستراتيجية لفظٌ مفسِد، صارفٌ عن جادة الصواب. والذين يرون من أهل النظر في الحرب أنّ «الحرب السِبرانية» ضرب جديد حاسم من ضروب النزاع، فقد أخطؤوا.

---

(1) *A Strong Britain in an Age of Uncertainty: The National Security Strategy* (London: The Stationery Office, 2010), p. 3.

(2) United States Department of Defense, *Quadrennial Defense Review Report* (Washington, DC: February 2010).

وأما الخوف من «السِبرانية»، فهو أمر طبيعي متوقع؛ ففي أواخر ستينات القرن العشرين استهلم **مارشال ماكلهان** (Marshall McLuhan)، من كتاب الفيلسوف **سورِن كيركغور** (Søren Kierkegaard) الموسوم بـ«مفهوم الرهبة – The Concept of Dread»، الصادر سنة ١٨٤٤م، قولَه: «إنّ كل بيئة جديدة إذا أحاطت ببيئة قديمة، أفرزت معها رهبةً جديدة». وإنه لَهَيّنٌ اليوم أن تجد شواهد على هذه «الرهبة الجديدة»[١]، فهي تغشى صفحات الجرائد، وتتصدّر أغلفة الكتب الرائجة، تُذيع تهديدات ملصقةً ببادئة «السِبرانية»، من «التجسس السِبراني»، و«الإرهاب السِبراني»، إلى «الحرب السِبرانية»، بل حتى إلى «القيامة السِبرانية» (cybergeddon)[٢]. وتُنشئ هذه الرهبة، في المقابل، سيلًا من المصطلحات المنحوتة مثل «أمن الفضاء السِبراني»، و«القدرة

---

(1) Canadian Broadcasting Corporation, 'Marshall McLuhan in Conversation with Norman Mailer', *The Way It Is*, broadcast 26 November 1967.

(٢) هذه الكلمة المولَّدة تدل على تصور فناء شامل، علته هجمة رقمية كبرى، أو انهيار عام تُحدثه أنظمة الذكاء الاصطناعي والشبكات الحاسوبية، بحيث تختلط أوجه الحرب، وتسقط الدول، وتضيع السيادة، وتفشو الفوضى في الأرض بسبب اختلال البنية الرقمية التي غدت اليوم عصب العمران. وهي مشتقة من «هرمجدون» (Armageddon)، وهي الكلمة التوراتية التي يراد بها الموقعة الأخيرة الفاصلة بين قوى الخير والشر في آخر الزمان، فأُلحقت بها لفظة «cyber» الدالة على الرقميات، لتصير رمزًا لنهاية محتملة للعالم بسبب حروب رقمية طاحنة، قد تدكّ البنى التحتية، وتعطّل الجيوش، وتقضي على شبكات الاقتصاد والمعاش. فهي حرب خوارزميات وأسلاك لا قنابل وصواريخ. [مويلك].

السِبرانية»، و«الاستراتيجية السِبرانية»، وكلها تدور في ذات الفلك. وأكثر هذه المصطلحات ينبغي أن يُنسى ويمّحى، ولا أسبقها إلى ذلك من «الحرب السِبرانية». وينبغي لنا، نحن أهل الاستراتيجية، أن نُعلي مطلب الانضباط في تسمية أنواع الحرب، فلا نُسارع إلى إطلاق نعوت جديدة ذات بادئات موهومة.

## ألم أركَ هنا من قبل؟

إنّ الحاضر لا يتكوّن من فراغ، بل هو محصّلة قوى عديدة، تمتد جذورها في عمق التاريخ؛ من عوامل سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وسكانية، ومناخية، وسواها. لكن لا يكاد يداخلنا شك في أنّ هذه اللحظة تتشكّل في كثيرٍ منها من أثر بالغ من تبدّل حديث وشديد في نمط وسائل التواصل، يراه كثيرون بشائر فجر لعصر جديد، يُسمّى «عصر المعلومات». وقد جاء في وثائقي بثّته «هيئة الإذاعة البريطانية – BBC» عن الفضاء السِبراني، عنوانه «الثورة الافتراضيّة – The Virtual Revolution»، قولهم: «إنّ الانترنت تُبدِّل موازين القوة على نحو لم يكن لِيَخطر لنا ببال. فمع وجود ملياري إنسان على الخط،

باتت الشبكة وسيلةً في محاسبة الحكومات، وكشف الظلم، وتسريع العولمة. وهي تُنشئ لنا روابط جديدة، ولكنّها تعيد تشكيل فنّ الحرب كذلك»[١].

دع عنك الآن صدق هذا الكلام أو كذبه –سنعود إليه لاحقًا– وتأمل بدلًا من ذلك: أما سمعنا مثل هذا من قبل؟ بلى، وكرّاتٍ كثيرة في القرن العشرين، ولا سيّما في أوائله، وإن لم ينقطع ذلك حتى اليوم أحيانًا. فقد كان أنبياء القوّة الجويّة يطلقون ذات الدعوى عينها. وقد علّق **مايكل شِري** (Michael Sherry)، في تاريخه البارع «صعود القوة الجوية الأمريكية – The Rise of American Air Power»، على تنبؤات أوائل القرن في شأن «عصر الطيران»، فقال: «ولأنّ النبوءة كانت تتقدّم على التقنية، فقد جاءت في الغالب أشبه بالتجريدات الذهنية أو الهامدة، كأنها صيغت على غرار الخيال العلمي، لا لتصوّر أخطار المستقبل، بل لتُبين عن قلق الحاضر»[٢].

وفي ظل هول الحرب الكبرى، بما فيها من مذابح مرعبة غير حاسمة، وقع جماعةٌ من المنظرين في سحر التصور بأنّ الحرب الجوية تملك القوة على الحسم السريع. ومن هؤلاء **جون فردِرك تشارلز فولر** (J.F.C Fuller)، إذ دعى في كتابه «إصلاح الحرب – The Reformation of War» إلى تخيّل ما يحدث إن

---

[1] British Broadcasting Corporation, The Virtual Revolution, Episode 2 'The Enemy of the State?', aired on *BBC2* (6 February 2010).

[2] Quoted in Michael S. Sherry, *The Rise of American Air Power* (New Haven, CT: Yale University Press, 1987), p. 23.

شنّت هجمة جوية هائلة: «ستغدو لندن في أيام معدودات مستشفى تضجّ بالجنون... وستُجتثّ الحكومة تحت وقع الرعب... وهكذا تُخاض الحرب في ثمان وأربعين ساعة، من غير أنّ يُمنى الطرف الغالب بخسائر تُذكَر!»[١].

وقد راجت تصوّرات فولر، وتمكّنت من عقول كبار واضعي السياسات. ففي خطبة شهيرة له في مجلس العموم البريطاني، ألقاها في تشرين الثاني سنة ١٩٣٢م بعنوان «خوف من المستقبل – A Fear for the Future»، قال **ستانلي بالدوين** (Stanley Baldwin): «إنّ القاذفة ستصل دومًا إلى هدفها»[٢]. وقد اقترن في هذا الكلام إيمانٌ بقدرة الجوّ على الحسم مع وعي حادّ بهشاشة المجتمعات الحديثة وعُرضتها الجسيمة للهجمات. وقد عبّر عن ذلك بَيزِل لِدِل هارت (Basil Liddell-Hart)، أحد كبار منظّري الحرب في الحقبة بين الحربين، فقال إنّ القوة الجوية تمكّن من تجاوز التحصينات التقليدية وضرب أعصاب الأمة مباشرة: «لقد كُشف جهاز الأعصاب في الأمة، فما عاد مغطًّى بلحم الجند، وصار معرّضًا للضرب، وكأنه الأعصاب في جسد الإنسان؛ بل إنّ

---

(1) J.F.C. Fuller, *The Reformation of War* (London: Hutchinson, 1923).

(٢) للنص الكامل لخطبة بالدوين في مجلس العموم، المؤرخة في العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٢م، انظر مدوّنة «Airminded»، وكان بالدوين في تلك الخطبة يردد ما قرره المنظّر الإيطالي في شؤون القوة الجوية **جوليو دوهويه** (Giulio Douhet) في كتابه «السيادة على الجو – The Command of the Air»، الذي نقله إلى الإنكليزية دينو فيراري (Dino Ferrari).

التقدّم الحضاري جعله أشد حساسية من ذي قبل، على خلاف ما كان عليه الحال في العصور البدائية»[١].

ولا نقصد بهذا التشبيه أنّ القوة الجوية و«القوة السِبرانية» سواءٌ في طبيعتها أو أثرها، ولكنّ المراد أن نقول: ينبغي لنا أن نتخذ سبيل الاحتياط الحصيف بين خوف مشروع وإنذار مدفوع بمصالح ذاتية، عند تقويم التهديد السِبراني استراتيجيًّا؛ وإنّ في العودة إلى جدال دام قرنًا من الزمان في شأن القوة الجوية، لعبرةً تنفع في هذا الموطن. وأظهرُ هذه العِبر: أنّ القوة الجوية لم تُحقق أبدًا آمال الذين تحمّسوا لها. ولا ينكر أحد ما لها من أثر عظيم في الحروب الحديثة -بل لا يبعد القول إنّ «الموت من السماء» قد صار سمة ملازمة لنهج الغرب الحربي المعاصر- لكنّ ما لم يقع هو ما زعمه أولئك الدعاة من أنّ القوة الجوية تكفي وحدها في حسم الحروب.

وأمر آخر لا يقل شأنًا: أن نكون على حذر من قادة الجيوش الذين يتحدثون عن الوسائل الجديدة بكلام لا يخلو من رغبة في ترجيح كفّة سلاحهم في الميزان البيروقراطي إزاء سائر الأسلحة. خذ مثلًا **هربرت جورج ويلز** (H.G. Wells)، الكاتب المعروف، إذ كتب سنة ١٩٠٨م، بعد خمس سنين فحسب من أول طيرانٍ بشري، رواية «الحرب في الجو – The War in the Air»، ووصف

(1) Op. Cit. Sherry, p. 26.

فيها أثر القوة الجوية وصفًا مزدوجًا: «إنها مدمِّرة تدميرًا هائلًا، ولكنها أيضًا، لا تُفضي إلى الحسم»[١]. وقارن هذا بتصور **وِليَم ميتشل** (William 'Billy' Mitchell)، شيخ القوات الجوية الأمريكية، الذي كتب بعد عشرين عامًا من البحث، قائلًا إنّ القوة الجوية «خطوة ظاهرة في سبيل رقي الحضارة، لأنها تُفضي إلى حسم الحروب سريعًا فلا تطول سنواتٍ طوالًا»[٢]. فأيُّهما كان أبصر؟

ومن الحكمة كذلك أن نُعيد ذكر **إليوت كوهين** (Eliot Cohen)، إذ قال قولًا بليغًا: «إنّ القوة الجوية من أشد صور القوة العسكرية غواية؛ إذ هي كالحبّ في زمن الحداثة، توحي بالإشباع من غير التزام»[٣].

**أما تحبّ أن تصعدي لأريكِ نقوشي؟**[٤]

إنّ القوة السِبرانية، في واقع الأمر، أشدّ غوايةً من القوة الجوية؛ ذلك أنها تبدو وكأنها تمنح ما لم تملكه تلك: ألا وهو السرية التامة، وهي من خواص

---

(1) H.G. Wells, The War in the Air (1908).

(2) Op. Cit. Sherry, p. 30.

(3) Eliot Cohen, 'The Mystique of US Air Power', *Foreign Affairs*, vol. 73, no. 1 (January/ February 1994), p. 109.

(٤) إيماءٌ فاحشٌ قديمُ العهد، أُلبِس لَبوسَ الكناية ودُثِّر بالمجاز.

المعمار الذي يُخفي الهوية في الفضاء السِبراني[1]. ولا ريب أنّ لهذا تبعات تُثير الفزع، وهو العامل الأساس الذي يسند ما شاع من تصوّرات «الهلاك السِبراني» المبالغ فيها، تلك التي تُفزع الساسة فتفتح أيديهم على صناديق المال.

فانظر مثلًا إلى ما جاء في كتاب «الحرب السِبرانية – Cyberwar» **لريتشارد كلارك** (Richard Clarke)، إذ صوّر هجمة سِبرانية تضرب الولايات المتحدة ضربة مدمرة، «من غير أن تطأ أرضَها قدمُ إرهابي أو جندي»[2]. ثم زاد على ذلك قائلًا إنه بسبب خفاء الهوية المتأصل في الإنترنت «قد لا نعلم يومًا ما الذي أصابنا»[3]. ولا شك أنّ هذا مشهد يُبعث منه الرعب. وقد جاء في الاستراتيجية الأمريكية هذا التصريح: «إنّ الفضاء السِبراني هو الجهاز العصبي... وهو نظام التحكّم في بلادنا»[4]. فإن عُبِث به، عُبِث بكيان البلاد بأسره. ولكن أليس هذا عين ما قاله ليدل هارت في شأن القوة الجوية؟

لعل ما لم يكن يصدق على القوة الجوية قد يصحّ على القوة السِبرانية؛ فلا ينبغي أن نكون معاندي تقنية، ولكن لا يجوز لنا نحن أهل الاستراتيجية أن

---

(1) See *Cyberspace Operations*, United States Air Force Doctrine Document 3-12 (15 July 2010), p. 10.
(2) Richard Clarke, *Cyber War* (New York, HarperCollins, 2010), pp. 67-68.
(3) Ibid, Clarke, p. 68.
(4) The White House, *National Strategy to Secure Cyberspace* (Washington, DC: 2003), p. vii.

نخدع أنفسنا بها أيضًا؛ وهو ما نقع فيه اليوم في ما يُسمّى «مشكلة الإسناد».

فإنّ هذه المشكلة، إلى جانب كونها مرعبة، فإنها مستملَحة كذلك، لأنها توحي بأنها تحل معضلة أعيت أجيالًا من المنظّرين، وهي: التصعيد. ويكمن المنطق الضمني في هذا التصور في الآتي:

- إنّ معرفة هوية المهاجم السِبراني أمرٌ عسيرٌ تقنيًّا.
- ومن ثَم تكون الانتقامات أو الردود أمرًا شائكًا.
- وبهذا، قد لا يقع التصعيد الذي كان سببًا في كبح الحروب الكبرى منذ عام ١٩٤٥م.

ومن هنا، تُثار بين الفينة والأخرى مقارنة شاذة بين الهجمات السِبرانية والهجمات النووية، وهي مقارنة من السخف في غاية. فإنّ **مارتن لِبكي** (Martin Libicki) قد نبّه إلى أنّ الفرق بينهما كالفرق بين «النار» و«الثلج»؛ فالأولى تُدمّر المدن وتُفني الأرواح، وأما الثانية، فلا تعدو أن تُربك وتُزعج، أقل أو أكثر[١].

والقياس الأقرب إلى الصواب إنما هو على القوة الجوية، لكنّ القوة السِبرانية أشدّ غواية من تلك، وذلك –في وجه– لأنها، كما تشهد بذلك حياة الآلاف

---

(1) Martin Libicki, *Conquest in Cyberspace* (New York: Cambridge University Press, 2007), p. 3& 39.

العاكفين على العادة السرية في أرجاء الإنترنت، تُقدّم متعة خالية من أي صلة جسدية، فضلًا عن الالتزام أو الرباط.

لكنّ هذا وَهمٌ، وإن لم يكن في هذا ما يُقلل من خطورة «مشكلة الإسناد»، فهي قائمة لا مرية فيها، ويستغلّها القراصنة والمجرمون أيما استغلال، ويُبهتون العالم بسرعتهم في سباق التقنية. ولكن الذي يُراد التنبيه إليه، هو أنّ هذه السريّة إنّما تليق بميدان السرقة والتجسس، لا في ساح الحرب، إلا إن استطاع امرؤٌ أن يتخيل دولة تستعمل القوة السِبرانية وحدها لإخضاع دولة أخرى لإرادتها، دون أن تعلن هويتها. وقد يأتي الإخضاع بعدها، وقد يُلمَح إليه أو يُساق سرًّا لا علنًا، ولكنّ السرية، في آخر الأمر، معضلة للمهاجم كما هي للمدافع. فإنّ العدو لا بد له أن يعلم من الذي يُمسك بتلابيبه، حتّى يذعن له، أو –كما قال كلاوزڤيتز– يدفع له «الثمن نقدًا».

## إنّ هذه المواعدة أغلى كُلفةً مما حسبت

إنّ شيوع الشبكات الرقمية، وتوفر الأجهزة الإلكترونية زهيدة الثمن في أيدي العامة، يُعدّان من التحديات الاستراتيجية الأخرى التي تُؤرق الفكر في شأن الفضاء السِبراني. وقد جاء في مقال حديث في «دورية القيادة المشتركة – Joint Forces Quarterly» ما نصه: «إنّ من أسباب الهَمّ السِبراني، وقربه وشموله،

أنّ كلفته الابتدائية زهيدة جدًّا، إذا ما قورنت بما يقتضيه خوض الحرب الجوية أو الفضائية من تجهيزات معقدة وباهظة»[١].

وهذا يُفصح عن هاجس مميز لهذا العصر: اختر ما شئت من المجازات – داود في وجه جالوت، أو جاليڤر في قبضة الأقزام– فإنّ قوتنا قد لا تُغني عنّا شيئًا في وجه لكمة ماكرة من نوع جديد. وهذا خوف وجيه في ذاته، ولكن لا بدّ من أن يُحفظ في نصابه. فإنّ خارج القصص المقدسة، إنما يكون النصر – كما قال نابليون ساخرًا– حليفَ من كانت له الكتائبُ الأضخم.

ولاريب أنّ أدوات «الحرب السِبرانية» في ذاتها زهيدة تراهُا. فانظر إلى ڤيروس «ستوكسنت – Stuxnet» الذي استهدف البرنامج النووي الإيراني، فقد أنجز –بنظافة نسبية– ما كانت أقوى القوات الجوية لتُعاني في تحقيقه كثيرًا من الكلفة والفوضى، كلّ ذلك وهو لا يجاوز ما يُختزن على قرص صغير يُعلّق في ميدالية المفاتيح. ولكنّ خفّته هذه تُخفي وراءها ثقلًا بالغًا في التركيب والتعقيد. فإنّ «ستوكسنت» كان أشبه بطائرة «زِبِلِن – Zeppelin» القاذفة في زمننا هذا عويصًا مُكلفًا في ذاته، ولكنّ أهميته تكمن في كونه نذيرًا لِما هو أعظم تعقيدًا وأكبر كلفةً ممّا هو آتٍ.

(1) Benjamin Lambeth ‘Airpower, Spacepower and Cyberpower’, *Joint Force Quarterly*, issue 60, 1st quarter (2011), p. 51.

وقد تطلّب تصميمه مقدارًا وافرًا من استخبارات عالية الدقة عن هدفه المقصود، لكي يُجدي نفعًا. ولا يُعدّه الخبراء الذين حللوه صنيعةَ قراصنةٍ متطفّلين زهيدي الإمكانات، بل قالوا: «لا بد أنه من صُنع من يعرف دقائق أنظمة التحكّم من طراز «سيمنز – Siemens»، وله إلمامٌ متين بكيفية تصميم الإيرانيين لمنشآت التخصيب لديهم. والحق أنّ الأمريكيين والإسرائيليين كانوا يملكون فكرة واضحة عن ذلك»(١).

وخلاصة الأمر، كما هو شأن سائر منظومات السلاح –خلا القنبلة الهيدروجينية–، أنها لا تُجدي أثرًا استراتيجيًّا ما لم تُدعّم بجملةٍ من الموارد الكبرى الأُخَر، ولا يستدام أثرها إلا بها. فبعيدًا عن أن يُعدّ هذا مظهرًا لتسوية في موازين القوة بين الدول، بل هو يؤكّد الفارق القائم، ويُثبّت الحال القائم من غير التماثل، لأنّ القوة السِبرانية تُكافئ القوى الكبرى بأدوات أعظم أثرًا، وإذا جدّ الجدّ، فإنّ دول الغرب قد فكّرت مليًّا في الهجوم السِبراني، وأثبتت براعة فيه.

ومرة أخرى، يصدق القياس على القوة الجوية. فإنّ السيادة الجوية شبه التامة، والتنسيق الجوي الأرضيّ، قد غديا شرطًا لازمًا لا يُستغنى عنه في «نهج الغرب الحربي»، أو ما سماه **ستيفن بِدِل** (Stephen Biddle) في كتابه «القوة

(1) William J. Broad, John Markoff and David Sanfer, 'Israeli Test on Worm Called Crucial in Iran Nuclear Delay', *New York Times* (15 January 2011).

العسكرية»، بـ«النظام الحديث» في القتال، وهو نظام، كما قال، نشأ في ظروف الحرب العظمى الأولى(١). وقد أفضى نشوء هذا النظام إلى انقسام حاسم في القوة العسكرية: فهنالك جيوش أدركت هذا النظام فأتقنته، وجيوش لم تدركه، فسُحقت سحقًا، ولو كانت تملك ذات الأسلحة أو أكثر عددًا.

ويُحتمل جدًّا أن يحدث الشيء ذاته في ميدان القوة السِبرانية. فإنّ الجيوش القادرة على حماية شبكاتها ستستفيد فوائد عظيمة من تمكين أنظمتها الشبكيّة، وأما مَن عجز عن ذلك، فلن ينال مثل هذه المزيّة، بل يُعاقب أشدّ العقاب إن حاول أن يُقحم نفسه في التمكين الشبكي من غير دراية. ويجدر بنا أن نُذكّر بما قاله **جون أركيلا** (John Arquilla) و**ديڤيد رونفلدت** (David Ronfeldt) في مقالتهما الشهيرة عام ١٩٩٣م «الحرب السِبرانية قادمة!»، وهي المقالة التي أطلقت شرارة هذا الجدل، إذ كانت -بخلاف كثير من الأدبيات- ذات توجه تكتيكي واضح: «قليلٌ من قواتك الخفيفة السريعة الحركة يهزم جموعًا كثيفة من عدو ثقيل التسليح محصّن، ومن غير خسائر تُذكَر من الطرفين. وتستطيع قواتك هذا، لأنها على استعداد تام، ومتمكّنة من المناورة، قادرة على تركيز نيرانها بسرعة في مواضع غير متوقّعة، ومزوّدة بأنظمة قيادة وتحكّم ومعلومات متقدّمة»، لامركزية تتيح المبادرة الميدانية، ولكنها في الوقت

(1) Stephen Biddle, *Military Power* (Princeton: Princeton University Press, 2004).

ذاته تُعطي القادة المركزيين قدرة استخباراتية غير مسبوقة ونظرة شاملة للغرض الاستراتيجي»[١].

فهي رؤية قوامها التفوّق في الحركة والرماية بفضل نظم المعلومات الأعلى كفاءة ـــــ المعرفة قوة، بمعناها الحرفي والفوري. وإنّ أدبيات الحرب السِبرانية لن تخسر كثيرًا لو عادت إلى هذه الرؤية الأولى، وبدأت منها من جديد.

إنّ القوة السِبرانية العسكرية قوة حقيقية، وتُعدّ عونًا مهمًّا للقوى العسكريّة الأخرى ـــــ ولكنّها، كالقوّة الجويّة من قبلها، لا تُغني عن غيرها، ولا تُبدّل لُبّ الحرب. ولعلنا، كبشر، نقترب من انقطاع حقيقي في المسار، ذاك الذي ينعته بعض العلماء بـ«التفرّد» –حينما تتفوّق الذكاء الآليات على العقل البشري[٢]. وحينذاك، سواءٌ صرنا امتدادًا لأبنائنا الرقميين، أو أفنونا، أو أبقونا أسلافًا يُوقّرون أو حيوانات أليفة يُحبونها– فلا فائدة من الحديث في الحرب، أو في غيرها من الشؤون. أما حتى ذلك الحين، فإنّ الحرب ستبقى كما كانت أبدًا: فعلًا جماعيًّا من أمة تُرغِم به أمة أخرى على إرادتها.

---

(1) John Arquila and David Ronfeldt, 'Cyberwar is Coming' in Arquila and Ronfeldt (eds.), In *Athena's Camp: Preparing for Conflict in the Information Age* (Santa Monica, CA: RAND, 1997), p. 23.
(2) Ray Kurzweil, *The Singularity is Near* (New York: Viking, 2005).

ومن ثَم، فغاية الاستراتيجية إنما هي في فهم الغايات الإنسانية التي تُسخّر لها الوسائل التقنية بطرائقَ لا تنفك تتغير. وأما أنواع الحروب ذات البوادئ المُلصقة، التي تحوّل محل الفهم إلى التقنية، فهي مما ينبغي نبذه وطرحه جانبًا.